خاتمة

هدفت الدراسة فى هذا الكتاب إلى تحقيق أغراض من أهمها :

التعريف بعلوم اللغة فى التراث مع تتبع نشأتها ومساراتها، وبيان المناهج التى عولجت بها.

وكثير من الأمور التى درست هنا كانت مجالا غُفْلا فى هذا الصدد.

كما أنها هدفت إلى التعريف بعلوم اللغة لدى المحدثين أيضاً، وبيان المراحل التى اجتازتها، ومجالات أبحاثها وموضوعاتها وصلتها بالعلوم الأخرى واستفاداتها منها، ومناهج دراستها ومستويات التحليل اللغوى عندها.

وتوصلت الدراسة إلى نتائج من أهمها ما أثبتته من دور للقرآن الكريم فى المباحث اللغوية حيث إنه مفجر علوم اللغة فى التراث وصاحب الفصل فى نشأتها فبفضل القراءات القرآنية والمهتمين بها نُقِط المصحف. واهتدى إلى علل حركات اخر الكلم، وتوصل العلماء إلى علم العربية.

وناقشت الدراسات أيضاً قضايا على درجة كبيرة من الأهمية والخطورة من بينها قضية أصالة كتاب سيبويه. وتتبعت الدراسة أطراف القضية المتعددة وتبين أن الهدف منها كان مرة هدم علم العربية من أساسه بجعله تارة منقولا عن الهندية أو اليونانية. وتارة أخرى محاولة هدم أول مصنف فيه وهو كتاب سيبويه وذلك بدءا بالتشكيك فى أصالته وجعله مأخوذاً عن الهندية ومروراً بتناول العصر الذى ألف فيه وجعله لا يتلاءم مع ما عليه علم العربية من نضج وعمق ودقة فى الترتيب والتناول... إلخ. وفى موضوعية وحيدة نوقشت تلك الدعاوى وتبين أنها كلها لا سند لها من دليل، وإنما هى إدعاءات أقاموها على الظن، «وأن

الظن لا يغنى من العلم شيئاً» ورد البحث لعلم العربية مكانته ولكتاب سيبويه أصالته على نحو ما هو مفصل فى موضعه من هذا الكتاب.

ولا تفوتنا هنا أن نشير إلى قضية ونحض على متابعتها ونوصى بها وهى ضرورة إقامة دراسات لغوية متعددة الجوانب حول كتاب سيبويه تتناول ما فى هذا السفر الجليل من قضايا لغوية متعددة وموضوعات هامة متصلة بها سواء منها ما اتصل بالمنهج أو اللهجات أو القراءات أو قضية المطابقة وربطها بالمنطق اللغوى والأرسطى سواء فى ذاك ظاهرة التذكير والتأنيث أو العدد أو دراسة الوحدات الغوية وغيرها من المباحث المتعددة الجديرة بالمعاودة وتسليط أضواء المناهج الحديثة عليها.. وبنوع خاص القضايا التى يظن فيها التأثر بالثقافات الأخرى مثل الدراسات الصوتية وغيرها مما هو على شاكلتها من قضايا متعددة مختلفة على غرار ما صنع (أ – شاءة) فى بحثه الذى عنوانه (علم الأصوات عند سيبويه وعندنا) وعلى نحو ما صنع أساتذتنا فى هذا العدد الأستاذ عبدالسلام هارون فى تحقيقه لكتاب سيبويه وما قدم من تعليقات عليه هى فى غاية النفع للدارسين فى هذا المجال(١) والدكتور عبدالصبور شاهين فى بحثه درس فى المنهاج التاريخى(٢).

---

(١) أنظر : النسخة التى حققها في خمسة أجزاء وما عليها من تعليقات الجزء الأول، نشر دار القلم (١٣٨٥هـ/١٩٦٦م)، والجزء الثانى، نشر دار الكاتب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة (١٣٨٨هـ/١٩٦٨م)، والجزء الثالث، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م والجزء الرابع، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥م، والجزء الخامس نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)

(٢) إقرأ : د. عبدالصبور شاهين فى كتابه «فى التطور اللغوى» درس فى المنهج التاريخى من ص ٢٠٧ إلى ص ٢٢٩. وإقرأ ما كتبه عن صفات الأصوات عند سيبويه ص ٢٣٠ إلى ٢٤٦ وإقرأ أيضاً صورة أخرى لتفكير سيبويه فى الجانب الأدائى من ص ٢٤٦-٢٥٣.

وناقشت الدراسة أيضاً مصادر المادة اللغوية ومنهج جمعها ودراستها واستقصى البحث فى تحليل ما دار بخصوصها من مناقشات وأراء فى القديم والحديث ورأى أن ما فات السلف ينبغى أن يتداركه الخلف، فقد كان هدف السابقين خدمة العربية لغة القرآن الكريم فلم يصدر عنهم التحديد الزمانى والمكانى للغة المدروسة إلا بقصد أن ينأوا بالعربية عن كل ما ينال من خصائصها أو يجد سبيلا إلى المساس بها مما يحرفها عن مواضعها وهى عندهم فوق أن تمس، فالهدف نبيل والوصول إليه ثمنه غال فقد حرموا على أنفسهم دراسة كل مستوى لهجى للقبائل العربية المختلفة وحصروا أنفسهم فى عدد القبائل. كما حرموا على أنفسهم دراسة حقبها المتلاحقة ففاتهم خير كثير. وفوتوا على العلم حقائق ينبغى ألا تفوت على المحدثين والدرس اللغوى الآن فى حاجة ماسة إليها ومن هنا تبدو أهمية دراسة اللهجات العربية القديمة والتوصل إليها بكل وسيلة من الوسائل وما أكثرها. ودراسة اللهجات الحديثة فى كل الأقاليم الناطقة بالعربية وأن يربط بينها فى دراسة مقارنة تبين الخصائص اللهجية المتشابهة فى القديم والحديث فهناك من الخصائص والظواهر اللهجية المتعددة ما هو ممتد الجذور فى اللهجات القديمة مع الاستعانة فى هذه الدراسات بما يمدها به علم الساميات، والربط فى هذا بين الظواهر المتشابهة فى اللهجات الحديثة والقديمة واللغات السامية وسوف تطلعنا تلك الدراسات على أمور ذات أهمية بالغة فى هذا الميدان مع ملاحظة أن مباحث العلوم الأخرى ستكون ذات أثر نافع فى هذه المباحث مما يتصل بخصوص هجرات القبائل العربية وتحديد مواطن استقرارها وكيفية انتشارها والعوامل التى ساعدت على انتشار لهجاتها أو انحسارها، وسوف تكون المباحث اللغوية هنا ذات أثر متبادل فسوف تكون هادية للباحثين الاجتماعيين

والجغرافيين والمؤرخين... إلخ.

كما يوصى البحث فى هذا الصدد بعمل أطالس لغوية جغرافية لتلك اللهجات القديمة والحديثة وسوف تكشف تلك الأطالس عن نقاط الالتقاء بين الظواهر اللغوية المختلفة مما يكون له الأثر البالغ فى الدرس اللغوى الحديث.

مع الاستعانة بالمنهج الوصفى فى حالات من أهمها الدراسة الخاصة باللهجات العامية. وبالمنهج التاريخى للهجات القديمة فى دراسة وتتبع الناحية الحركية فى الظواهر اللغوية المختلفة، وذاك يتبع حركة الظواهر اللغوية المختلفة عبر الزمن.

والاستفادة بالمنهج المقارن فى حالات الدراسة المقارنة بين الخصائص والظواهر اللغوية فى اللهجات الحديثة أو القديمة أو الربط بينها وبين مثيلاتها فى اللهجات العربية القديمة، أو عند دراسة مثيلاتها فى اللغات الساميات.

ففى الوصل بين اللهجات العربية قديمها وحديثها ووصل العربية بأخواتها الساميات عندما تتم مثل تلك الدراسات ستكون الفائدة العائدة على الفصحى فائدة كبرى لاشك فى ذلك.

وأما عن اللغة وصلتها بالمنطق فكان من الطبيعى أن يتم لقاء بين الفكر اللغوى والمنطق بسبب الاحتكاك الثقافى وانفتاح الفكر الإسلامى آنذاك واتصاله بالحضارات المختلفة، كما أن التأثير والتأثر بين الحضارات أمر ضرورى ولا غبار عليه ولكن العيب فى الإسراف فى تطبيقه كما حدث فى بعض الحالات على نحو ما هو واضح فى موضعه من الكتاب وهنا توصى الدراسة بضرورة عمل أبحاث مختلفة عن ظواهر التأويل والتشذيذ وإهمال النصوص فى بعض الحالات أو تخطئ الصحيح فإن مثل هذه

الأبحاث عندما تتخذ من المناهج الحديثة أداة لها سوف ترينا فى تلك الأمثلة التى خالفت القياس أو خرجت عليه حقلا خصبا يعطى نتائج لغوية ذات أهمية بالغة تكشف عن طرق الأداء عند بعض القبائل وتلقى أضواء على ظواهر لغوية كثيرة ذات صلة بالطبيعة الجغرافية والبيئية فى ذلك العصر. كما أنها ستكشف عن مدى أطراد القواعد اللغوية مع المنطق وعن علاقة ذلك وصلته بمراحل نمو الظواهر اللغوية المختلفة سواء منها ما يتصل ببنية الكلمة أو ببنية التركيب أو حالات الإعراب ومراحله ومثل هذه الأبحاث سوف تعطى الدراسة الظواهر اللغوية المختلفة دقة تنبع من إرتباط اللغة بالواقع الاجتماعى وطبيعة دورها وتأثرها وتأثيرها وتلك علاقات تعطى التفسير العلمى للخروج أو الشذوذ.. فبمقدار تفاعل اللغة مع الواقع الاجتماعى فى أداء دورها وغرضها وهو الإبانة ووضوح الدلالة المطلوبة فى الموقف يتم التواؤم بين الصحة الداخلية والخارجية للتركيب بصرف النظر عما يراه المناطقة من خروج أو مخالفة للدقة النطقية المطلوبة عندهم.

كما أوصى أيضاً بمتابعة دراسة التأثيرات المختلفة التى نجدها فى حقل الدرس اللغوى على نحو ما هو موجود فى كتب اللغة ابتداء من كتاب سيبويه ومروا بمن تبعه حتى أبى عن الفارسى وابن جنى وعبدالقاهر ومن جاء بعدهم على نحو ما سقناه من أمثلة فى موضعها من الدراسة داخل الكتاب. وقد كان هدفنا من عرض أبعاد كتاب العوامل المائة لعبدالقاهر بيان أبعاد المجالين معاً مع إلقاء ضوء تتحدد معه أبعاد منهج الدراسة فى هذا الاتجاه التقليدى على نحو ما أوضحناه فى موضعه.

أما عن المباحث الموجودة فى التراث والخاصة بفقه اللغة والثروة اللفظية والمعاجم وما إليها فإننا نوصى بإقامة الدراسات حولها وإعادة

إخراجها ونشرها مع عمل الدراسات اللغوية الخاصة بها بعد تصنيفها فى مجالاتها وذلك سوف يضاعف النفع بها وكذلك عن طريق عمل دراسات ومباحث لغوية متنوعة الاتجاهات تجمع بين جهود العلماء الذين اتحدت غاياتهم وفرقتهم الأماكن أو العصور.

مع نشر مخطوطاتهم وتحقيقها فى هذا المجال وما أكثرها.

وقد عرضت الدراسة فى هذا الكتاب أيضاً لعلوم البلاغة التقليدية وأوضحت كيف أنها امتداد لمباحث لغوية اتخذت مسارات متنوعة انتهت إلى ما عرف بالعلوم البلاغية وإن ما تضمنته هذه المنصفات من بحوث لغوية جديرة بأن تشحذ نحوها همم الباحثين ففى تسليط أضواء الدراسات الحديثة عليها نفع كبير للعربية وإثراء للدرس اللغوى فقد كانت الرغبة فى فهم أسرار إعجاز القرآن الكريم وإقامة الأدلة العلمية على إعجازه هى مفجر تلك العلوم.

ومن خير ما نوصى به هنا الانتفاع من مناهج البحث اللغوى الحديثة وربطها بالتراث ففى تراثنا من الزاد العلمى ما يكفى لإقامة صرح شامخ من نهضة علمية ذات أصل ثابت وفرع فى السماء.

«والله يقول الحق وهو يهدى إلى السبيل».